معالم الحضارة الإسلامية في خطب الرسول (ص) .

الدكتور حازم عبد الله خضر
استاذ مساعد

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

تمهيد :

من أبرز الأمور التي أجمع عليها المؤرخون والباحثون في حقول التاريخ والأدب والحضارة ان الأسلام دين التحضر والتطور وأنه قد مكن أتباعه في فترة قصيرة من الزمن أن يشيد وا حضارة ذات أسس رصينة وقواعد متينة أغنت البشرية ومازالت تغنيها وترفدها بعطاء ثر غزير من المعاني السامية والتوجيهات الرفيعة لاستقامة سلوك الفرد وانسجام أفراد المجتمع في حياة ملؤها الرفاه والسعادة وقوامها التكامل والتعاون في جميع نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ونظمت العقيدة الاسلامية ذلك كله في نفوس الأفراد والجماعات وفي ثنايا تصرفاتهم وأخلاقهم وعلاقاتهم فيما بينهم أو فيما بينهم وبين أفراد المجتمعات المجاورة الأخرى أو المتعاملة مع أفراد المجتمع الاسلامي ، وفي هذا النهج السوي المستقيم المتوازن عون أي عون على عمران الأرض ونشر العدل بين أفراد الناس جميعاً لا فرق في ذلك بين الصغير والكبير والغني والفقير .

وإذا كان ابن خلدون قد ذكر بأن الحضارة (إنما هي تفنن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله) (١) فإن الحياة قد تطورت في ظل الاسلام ضمن هذه الأمور جميعاً وضمن ما يوضح أن الاسلام قد سبق فهم المعاصرين للحضارة والذي يتلخص بأنها (تعني التقدم الروحي والمادي للافراد والجماهير على السواء)(٢) كما كان هذا النهج الاسلامي الأيجابي في بناء حضارة الأسلام يعتمد هاتين الدعامتين الروح والمادة بفضل تعاليم القرآن الكريم وتوجيهات الرسول (ص) في سيرته وسلوكه وسائر أفعاله وأقواله (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولاتبغ الفساد في الارض) (٣) .

وكان من أبرز سمات هذا المجتمع إستقامة أفراده وتوازن تصرفاتهم وعلاقاتهم ؛ قد عرف كل منهم ماعليه من واجبات فأداها دون رقيب أو حسيب ، كما أدرك حقوقه فلم يتطلع إلى مالاحق له فيه .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٢

(٢) فلسفة الحضارة / ألبرت شفيتشر / ت عبدالرحمن بدوي ص ٣٤

(٣) القرآن الكريم سورة القصص آية ٧٧

من هنا كانت دراسات الباحثين على مر العصور واختلاف الأمكنة معنية عناية كبيرة بتسليط الأضواء على معالم هذه الحضارة الأسلامية المتميزة بخصائص وسمات لم تكن في الحضارات التي سبقتها أو التي جاءت بعدها ، وكثرت هذه الدراسات حتى فاقت الحصر مع تنوع في طرق البحث والنظر في الكشف عن سمات هذه الحضارة وذلك طبقاً لميول الباحثين وأفكارهم ومناهجهم وغاياتهم في بحوثهم ودراساتهم من مسلمين ومستشرقين ونذكر على سبيل المثال عدداً من هذه الدراسات لباحثين مسلمين ومنهم : أبو الأعلى المودودي في كتابه : الحضارة الاسلامية أسسها ومبادؤها . ومصطفى الشكعة في كتابه : معالم الحضارة الاسلامية . وزكريا هاشم في كتابه: فضل الحضارة الأسلامية والعربيةعلى العالم. وأنور الرفاعي في كتابه : الأسلام في حضارته ونظمه .

أما المستشرقون فلهم دراسات عديدة في هذا المجال ومن أبرزهم : — جب في كتاب دراسات في حضارة الأسلام .

وجي ، أي. فون كروبنبياوم في كتاب : الوحدة والتنوع في الحضارة الأسلامية والمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة في كتابها : شمس العرب تشرق على أوربا وآدم متز في كتابه : تاريخ الحضارة الأسلامية في القرن الرابع الهجري

وغوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب . وغيرهم كثير .

وليس من شك في أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مؤسس هذه الحضارة ومرسي قواعدها ومنفذ خططها وبرامجها في وقت كانت البشرية تتخبط في دياجير الجهل والتخلف والضعف والتفكك وتعاني من أمراض اجتماعية فتاكة تنخر فيها حتى قسمتها إلى فئات وطبقات وأمعنت في تعميق الفوارق بين الافراد والجماعات فكان نظام الاقطاع والرق ونظام الربا والأستغلال ومظاهر الاحتكار والتسلط من أبرز سمات المجتمعات البشرية ، وليس أدل على ذلك من هذه الصورة التي يعرضها أحد المسلمين الأولين الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم تخلصاً من أذى إخوانهم وذوي قرباهم من المشركين والكفار إنه الصحابي الجليل الشهيد جعفر بن أبي طالب ، فقد وقف بين يدي النجاشي ملك الحبشة ليعرض صورة المجتمع قبل ظهور الاسلام مجيء الرسول (ص) يرد بذلك على مبعوثي المشركين عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص اللذين قدما إلى النجاشي بطلب إخراج المسلمين من بلاده : قال جعفر رضي الله عنه :

(أيها الملك : كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده (١).

بهذا تبدو عظمة الاسلام في تحويل هذا المجتمع إلى الحياة الحرة الكريمة في ظل حضارة إيجابية متوازنة وفريدة في حضارات الأرض وثمرات النظم المختلفة . وذلك بما اعتمدت عليه من (المبادىء الاصلاحية التي تضمنها الدين الاسلامي الحنيف وهي تلك المباديء التي أرسل الله بها رسوله الأمين محمداً صلى الله عليه وسلم ...) (٢) .

ولا يخفى أن الرسول (ص) قد اتبع في نشر دعوته وبناء حضارة أمته جميع الأساليب والوسائل التي أمر بها وفي مقدمتها تلك الوسائل التي تقابل الأعلام في أسلوب العصر ، ذلك الاعلام الذي شمل جميع أنواع الأتصال بالناس وتبليغهم دعوة الله ، وفي مقدمة ذلك ما أجمع الباحثون على أعتباره من أبرز وسائل الأعلام وهو الاتصال بأنواعه الثلاثة

الاتصال الشخصي . الأتصال الجمعي . الاتصال بالجماهير (٣) .

وقد مارس الرسول (ص) الأتصال الشخصي على نطاق معروف وكان من ثمراته في إبان دعوته أوائل الصحابة والدعاة الذين حملوا لواء الاسلام وكانوا أعلاماً في الجهاد والدعوة والتضحية.

أما الأتصال الجمعي فيرى الباحثون أن المقصود به الأتصال بالناس عن طريق (الخطابة والمؤتمرات والندوات والأماكن التي يتجمع فيها الناس يستمعون فيها إلى محدث واحد أو عدد من المحدثين وإن كانت الخطبة أبرز ظواهر الأتصال الجمعي بلا نزاع ، وعليها — أى على الخطبة — اعتمد الرسول اعتماداً كبيراً في نشر الدعوة وفي شرح تعاليم الدين..) (٤) ولاشك أن اهتمام الرسول الأعظم بالخطابة وممارسته لها يعود إلى اهميتها البالغة ومكانتها التي عرفت لها في المجتمعات البشرية (منذ أقدم العصور ، والخطبة من حيث هي تعتبر أقوى وسائل الأعلام والدعاية والأتصال بالناس للتأثير في مشاعرهم ولأقناعهم بالأفكار الجديدة والعقائد الجديدة .

---

(١) سيرة ابن هشام حـ١ ص ٢٩٠ وكلام جعفر طويل في هذه المعاني .
(٢) فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم — زكريا هاشم ص٩٩
(٣) الاعلام في صدر الاسلام /عبداللطيف حمزة ص١٧٢
(٤) الاعلام في صدر الاسلام/ عبداللطيف حمزة ص١٧٢

وبقي شأن الخطابة كذلك في العصر الجاهلي وفي صدر الأسلام وفي الخلافة الأموية وما تلاها من حكومات بل بقي شأنها كذلك في كل ثورة على وجه البسيطة وذلك في العصور القديمة والوسطى والحديثة ..) (١) .

ومن هنا كانت غاية هذا البحث عرض عدد من سمات الحضارة الأسلامية من خلال الخطب النبوية الكثيرة في شتى المناسبات والظروف والأغراض والموضوعات ،لما تحويه من الدلالات الحضارية في طريق التقدم والتطور لأسعاد البشر في الدارين .

ويلاحظ الباحث المتأمل عند النظرة الأولى في مجموع هذه الخطب انها تحوي الكثير من الدلالات التي اشرنا اليها والتي يصعب استقصاؤها والتفصيل في سماتها وخصائصها في هذا البحث مما يحتم التركيز وتأكيد عدد منها تاركين التفصيل والتتبع المطول إلى فرصة أخرى نرجو أن تتاح بإذن الله .

ويلاحظ الباحث كذلك أن الخطابة ازدهرت في ظل الاسلام بفضل الدواعي الشرعية التي ادت إلى زيادة الاهتمام بها واعتمادها وسيلة رئيسة من وسائل الدعوة والتبليغ كخطب الجمعة والعيدين وخطب الجهاد والأحفال والمناسبات الدينية والأجتماعية العديدة (٢) .

يضاف إلى ماسبق ان الرسول (ص) كما عرف نفسه ووصف لسانه بقوله:

(أنا افصح العرب بيد أني من قريش) (٣) فكان المثل الاعلى والقدوة العظمى في الدعوة إلى الحق والثبات عليه بحماس وأخلاص لايعرفان التردد او الضعف كما كان المثل الأعلى والقدوة في حمل الأمانة وتبليغها والاستعداد لتحمل كل ما يعترض سبيلها من المصاعب والمتاعب .

لهذا كلة كانت خطب الرسول (ص) محل نظر كثيرين من الباحثين والدارسين الذين تأملوا فيها ووقفوا على عديد من سماتها وخصائصها وتتبعوا الآثار والأبعاد التي أحدثتها في احوال المجتمع وبناء حضارته .

أسس العقيدة والعبادة :

وأول مايلحظه الباحث من المعالم الرئيسة للحضارة في خطب الرسول ؛ تأكيدها قواعد العقيدة الأسلامية وأصول العبادات الشرعية التي فرضت على المسلمين تباعا ومع

---

(١) المرجع نفسه ص ١٧٢

(٢) ننظر: الاسلام في حضارته ونظمه / أنور الرفاعي ص ٥٧٨

(٣) القاضي عياض / الشفا بتعريف حقوق المصطفى. ط١ ص ٨٠

تطور مجتمعهم وتقدمه وقوة دولتهم وازدهارها . فالتاريخ يحدثنا أنه (لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا فقال: يامعشر قريش فقالت قريش محمد علي الصفا يهتف فأقبلوا واجتمعوا فقالوا مالك يامحمد ؟ قال : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل اكنتم تصدقونني ؟ قالوا نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يابني عبد المطلب يابني عبد مناف يابني زهرة حتى عدد الأفخاذ من قريش إن الله أمرني أن انذر عشيرتي الأقربين وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الأخرة نصيباً إلا أن تقولوا لاإله إلا الله ...)(١) فهذا الأعلان الصريح الجازم بالدعوة إلى الايمان بالله واثبات الرسالة والوحي وسط الجموع الحاشدة المشركة ليشكل معلماً واضحا من معالم الحضارة اذ ينطوي على الثقة بالنفس وأداء الواجب وتكامل الشخصية القيادية الفذة التي تباشر مهامها دون تردد او خوف حتى ولو كان الناس جميعاً من حولها يخالفونها وينكرون عليها دعوتها.

هذا بالنسبة لصاحب الدعوة أما بالنسبة للدعوة نفسها فان أهم ماانطوت عليه إقرار مبدأ الألوهية والتوحيد الخالص القائم على إفراد الله عز وجل بالعبادة والأحياء والخلق والرزق والموت والبعث والنشور ، وترد هذه المعاني في نص من خطبة الرسول الأولى في مكة حين يؤكد معاني التوحيد ويقرر مبادىء العقيدة الصحيحة بأسلوب بلغ الغاية في الصدق والأخلاص وجمال التعبير : (إن الرائد لايكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ماكذبتكم ولو غررت الناس جميعا ماغررتكم ، والله الذي لاأله إلا هو اني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالأحسان إحسانا وبالسوء سوء وإنها لجنة أبداً او لنار أبداً ...) (٢) وهكذا يبلغ الرسول (ص) أعلى درجات البيان وهو أفصح العرب مؤكدا أصول الدعوة وقواعدها بالأضافة إلى ذكر أهم خصائص هذه الدعوة وسماتها وهي الربانية والعالمية فهو رسول الله أولا ثم هو مرسل إلى العرب خاصة والناس عامة ثانيا ، واحتوى المقطع الأخير كما يرى أحد الباحثين على : (مالايضاهى في ذهول الرؤيا الفكرية الصادقة وغنائيتها العذبة وإيقاعها النبوي الملهم ، ففيه تتضوع أعراف من الروح والتأمل العميق الساجي

(١) الطبقات الكبير / محمد بن سعيد الواقدي حـ١ ص ١٣٣
(٢) السيرة الحلبية حـ٢ ص ٢٧٢

والخطرات الموحية دون استطراد وبحث ، بل يعرض الأفكار ببداهة ويقين ..) (١) . وبذلك يجمع الرسول العظيم (ص) بين عمق المعاني وإيجابيتها وشمولها وبين جمال الأسلوب وقوة تاثيره مما يدل دلالة واضحة على توازن الشخصية في القول والعمل ويشير إلى معلم حضاري رصين يعتمد على الأيجابية والشمول اللذين يتسم بهما الأنسان المسلم في فكره وعقيدته واعتمادهما الأيمان بالغيب الذي يشمل اليوم الاخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وعقاب وجمع الناس في التعبد على اله واحد قادر واهب للحياة والرزق يحي ويميت بيده ملكوت كل شيء ، وبهذا وحده تكون الحضارة الايجابية التي تبنى وتعمر القلوب والأرواح وتقوى الفضائل والأخلاق . وهي من الجهة الأخرى تهدم الباطل وتحطم الأصنام التي كانت وما تزال شارة من شارات التأخر والجمود ودلالة على العقلية المتأخرة والفكر المنحجر الذي يظن في الحجر او الشجر أو غيرهما من مظاهر الطبيعة الجامدة النفع والضر ويتعامل معه وكأنه كائن حي يملك الموت والحياة والرزق والنصرة والتأييد وذلك هو الضلال البعيد..

ومما يتصل بعقيدة اليوم الاخر معاني الحساب لمكافأة المحسن بالجنة ومعاقبة المسيء بالعذاب والنار وهو مبدأ عظيم من مبادىء الحضارة الصحيحة والتقدم ذلك انه يجعل للحياة غاية سامية وهدفاً رفيعاً يرتفع بالأنسان عن مرتبة الحيوان إلى المرتبة التي تقرب من الملائكة ، فيعمل في الحياة منكراً ذاته شاعراً بمن حوله مؤدياً واجبه مستوفياً حقوقه دون ضرر أو اضرار ولا يكون همه اشباع غرائزه فقط ، إنما يكون جل اهتمامه وغاية مرامه حمل رسالة الاخوة والمحبة والسلام في ربوع الأرض وكشف الضر عن المحرومين. والضعفاء والمظلومين حتى ولو كلفه ذلك حياته ودمه ؟ .

من هنا كان الرسول (ص) معنياً بالتأكيد على هذه الدعوة في العديد من خطبه وإلفات النظر إلى القواعد الأولى في بناء صرح الحضارة الأسلامية ، ففي أول خطبة خطبها في المدينة بعد هجرته اليها نراه يؤكد هذه المعاني بأسلوب آخر يتسم بالغاية القصوى في عمق وبراعة التصوير مع بيان ساحر ولسان فصيح وبلاغة ليس بعدها أو قبلها بلاغة سوى بلاغة القرآن الكريم :

---

(٢) فن الخطابة وتطوره عند العرب / ايليا حاوي ص ٧٢ وما بعدها .

(الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره واعادى من يكفره ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلال من الناس ، وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى وفرّط وضل ضلالاً بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله فأحذروه ماحذركم الله من نفسه ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكراً ...) (١).

وتمضي الخطبة الطويلة بهذه المعاني التي تؤكد على تقوى الله وما تنطوي عليه من الخير والفضل والهداية للفرد والمجتمع مستعيناً بالوسائل البيانية المختلفة في تصوير المعاني وتقريبها إلى الاذهان وتثبيت القلوب الجامحة والنفوس النافرة على الطريق الصحيح للسعادة التي ينشدها الأنسان في حياته لنفسه ولامته على مر العصور وتوالي الدهور ... (٢) .

ويذكر ابن هشام نصاً لخطبة القاها الرسول (ص) في المدينة أول وصوله اليها وهي لاتبعد في معانيها عن معاني الخطبة السابقة وبخاصة فيما يتعلق بتأكيد اصول العقيدة في التوحيد والأيمان باليوم الاخر ففي عدد من عباراتها يقول الرسول (ص) :

(أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمنّ والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ، ثم لينظر قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فلينعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فأن بها تجزي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف ...) (٣) .

هذا هو اساوب النبوة في الدعوة إلى الله وتثبيت قواعد العقيدة الصحيحة التي يتحرر بها الأنسان من قيود الشرك والعبودية لغير الله عز وجل ، بالأسلوب الذى يجمع بين المادة والروح وبين الحس والمعنى ويضع نظام المكافآت التشجيعية آخذاً بأسلوب الترغيب في النعيم المقيم والأجر العظيم إلى جانب الترهيب من العذاب الأليم والشقاء المترتب على الضلال والشرك .

---

(١) تاريخ الامم والملوك / الطبري حـ٢ ص ٣٩٤

(٢) ينظر المصدر نفسه بقية هذه الخطبة الجليلة في حـ٢ ص ٣٩٥

(٣) سيرة ابن هشام حـ٢ ص ١٠٥

إنها السمة الحضارية الرفيعة في تخصيص الجوائز والتي وضع قواعدها الأسلام ونفذ تشريعاتها الرسول (ص) في قوله وفعله وسيرته .

ويعرض الرسول (ص) إلى موضوع العقيدة والتقوى بأسلوب آخر يعتمد الموازنة بذكر الشيء وما يقابله لأ يضاح الفرق بين الاثنين وإبراز أهمية كل منهما وأثره في حياة الفرد والمجتمع ، مستعيناً بالحديث عن الموت وكونه نهاية كل حي وأنه قريب من الاحياء غير أنهم يغفلون عنه وينسون أنهم صائرون اليه (أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب وكأن الذى نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوئهم أجداثهم ونأكل من تراثهم كأنا مخلدون بعدهم ونسينا كل واعظة وأمنا كل جائحة ....) (١) .

وهكذا يمضي الرسول (ص) بأسلوبه النبوى الكريم (يقابل بين الدنيا والآخرة ويمثل أمرهما بأمثال عديدة كما يذكر بالنعيم والجحيم والموت وقدره المحتم على أعناق البشر اللاهين عنه المنشغلين بأمورهم ، كأنهم مقيمون إقامة دائمة لايزعجون عنها .. (٢) وهذا أمرٌ يجعل للحياة قيمة وغاية تنتهي اليها ليكون الناس إزاء. ماقدموا لأ نفسهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر :

سمات المجتمع الاسلامي في موكب الحضارة :

وترسم خطب الرسول (ص) سمات المجتمع الأسلامي وخصائصه التي تميزه من غيره من المجتمعات ؛ بوضع القواعد والأصول التي يقوم عليها كيانه سواء في تنظيم العلاقات المختلفة بين أفراده أو بين الأفراد ومن يتولون إدارة شؤونهم ، أو بين المجتمع الأسلامي والمجتمعات المعاصره له .

والمتأمل في هذه السمات يجدها سمات حضارية واضحة قد بلغت القمة السامقة في إقرار الحقوق والواجبات وتحقيق التعاون والأنسجام وفي بذل أقصى الجهد مع تحري الأخلاص التأم في تأدية الواجبات من غير رقيب او حسيب سوى رقابة الله تعالى على الضمائر والقلوب واستشعار أفراد المجتمع عظمة الله واستحضار قدرته وقوته عليهم في جميع الأحوال

---

(١) تاريخ الأمم والملوك/ الطبري حـ٢ ص ٢٥٢

(٢) فن الخطابة / ايليا حاوي ص ٧٦

والتصرفات (... قال صدقت فأخبرني عن الإحسان . قال أن تعبد الله كأنك تراه فإنه لم تكن تراه فإنه يراك ..) (١)

حق الحياة والتملك :

وأولى مانذكره من هذه السمات أن الاسلام – ومن خلال خطب الرسول – قد أقر حق الحياة وحق التملك لكل إنسان عن طريق احترام الانسانية وتقديرها قدرها الصحيح ووضعها في المكان اللائق بها دون إنقاص لها أو مبالغة في تقديرها . كما أقر حق التملك للانسان واعتبره الفطرة التي فطر الناس عليها في حب الملك حقاً مشروعاً يجب أن يصان مادام في حدود العدل والمروءة ومادام الفرد ملتزماً بطرق الكسب المشروعة مقراً بطرق الإنفاق والنفع للامة والمجتمع بطريق مشروع أيضاً .

(أيها الناس إن دماءكم واموالكم عليكم حرام إلى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ..) (٢) .

ولا يخفي ماينطوي عليه هذا التشريع النبوي الكريم من إقرار قاعدة حق الحياة والتملك بالنسبة للناس جميعاً في ظل الدولة الأسلامية وليس بالنسبة للمسلمين فقط فالخطاب إلى الناس بهذا العموم والاطلاق الواضح الصريح .

على أن الرسول الأعظم لايكتفي بالتشريع فقط وإنما يوجه هذا التشريع ويدعمه بتطبيق عملي يبدأ فيه بخاصة أهله وعشيرته حين يلغي الدماء التي كانت في الجاهلية لكي تتحطم قاعدة الأخذ بالثأر وقتل الابرياء وانتشار الإحسن والأحقاد وقيام الحروب الطاحنة والغزوات المستمرة ، وليبدأ الناس حياة جديدة يؤكدون فيها احترام الأنسان وتجنب إهانته او الأساءة اليه بأى شكل وبأى قدر ..(وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ...) (٣) .

وهذا الأسلوب النبوى الكريم قد بلغ ذروة الحضارة الحقة القائمة على تطبيق المبادىء والتشريعات على الحاكم تماماً مثل تطبيقها على المحكوم دون أن يكون الأمير أو الحاكم مستثنى ومصونا غير مسؤول .

---

(١) جزء من حديث طويل رواه عمر رضي الله عنه / انظر الاربعين النووية ص١١ .

(٢) سيرة ابن هشام حـ٣ ص ١٨٥ .

(٣) سيرة ابن هشام حـ٣ ص ١٨٥ .

ويجعل التشريع النبوي الكريم حرمة دم الانسان ـ أيّ انسان ـ وماله كحرمة البلد الحرام ـ مكة المكرمة والكعبة المشرفة ـ وكحرمة الشهر الحرام وهذان الامران مما كانت العرب تعظمه وتحترم قدسيته الدينية وقد حفظ الإسلام ذلك وزاد عليه .

وبهذا يعبر الرسول (ص) عن الوحدة التامة بين العبادات والمعاملات من جهة وبين التشريعات وتطبيقها على الناس جميعاً من جهة أخرى ، مع ربط ذلك كله بقيمة الأنسان وحرمته وحرمة ماله ودمه وقيمة المقدسات الأسلامية ،في المكان والزمان ، وهكذا كان (المبدأ الاول هنا إقرار حق الحياة والملك ، فالقتل حرام ونزع الملك غصباً حرام وذلك أمة اعتادت الغزو والحرب لأخذ الغنيمة من مال الغير ...) (١) .

ولكن الرسول (ص) بالأضافة إلى هذا كله لايقف عند مداول هذه السمة وأبعادها وإنما يزيدها عمقاً في النفوس حين يشهد عليهم أنه قد بلغهم ويقيم الحجة بأقرارهم بهذا التبليغ حيث يصبحون مسؤولين مسؤولية كبرى ومباشرة بعد أن وصل اليهم البلاغ وأدى الرسول تلك الأمانة العظيمة التي كلف بها (لقد عرف التاريخ خطباء كثيرين من اليونان والعرب وكانوا يستخدمون هذه الطريقة من طرق الخطابة وهي انهم يختمون كل فقرة من فقرات كلامهم بجملة معينة يكررونها ويلحون في تكرارها حتى تفصل بين فقرة واخرى او معنى ومعنى وتنتقل السامع إلى الفقرة التالية او الفكرة التي تأتي بعد هذا ، ولكن التاريخ قد عجز عن الأتيان بمثل هذه العبارة التي كان يختم بها محمدٌ جزءً من أجزاء خطبته وهي قوله : ألا هل بلغت ؟ ألّلهم فاشهد . إنها عبارة لها من قوة الإعلام وتنبيه الأذهان وتسجيل الشهادة على كل من حضر هذه الخطبة مالايمكن ان يكون لعبارة أخرى في موضع كهذا في موقف كهذا من رسول كريم كهذا الرسول ...) (٢) .

ثم ينهي الرسول (ص) النهي القاطع عن ان يرجع الناس بعده إلى جاهليتهم التي اعتادوها في استباحة الدماء والأموال لان ذلك كفرٌ يواخ برأهم الله منه وسمة من سمات التخلف والوحشية والهمجية (أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، ألا هل بلغت ، قلنا نعم ، قال: اللهم اشهد، لاترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ..) .

---

(١) محاضرات في تاريخ العرب والاسلام / عبداللطيف الطيباوي ص ١٢٦ /١٢٧

(٢) الاعلام في صدر الاسلام / عبداللطيف حمزة ص ١٨١ .

وهذه سمة حضارية ماتزال الأنسانية تحلم في تحقيق جزء يسير منها ، على الرغم من ان العالم يعيش عصر الذرة وغزو الفضاء ويتمتع الناس باسباب الرفاه في العيش ، بل إن العالم في كل يوم يشهد شعوباً مستضعفة مستغلة تنخر في اجسادها آفات الجهل والمرض وتتعاورها الدول الكبرى وتتكالب على مواردها وخيراتها وتبطش بها أفراداً وجماعات وتفرق بينها على اسس وضعية وضيعة من اختلاف اللون او الجنس او ما إلى ذلك ...

الأخوة والمساواة بين المسلمين :

ويرسي الرسول (ص) في خطبه أصول الأخوة بين المسلمين بالغاء الفوارق بينهم واعتبارهم جسدا واحداً يجب أن يقوم كيانهم ويؤسس بنيانهم على الود والصفاء والأحترام والتقدير. (ايها الناس إسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وان المسلمين إخوة فلا يحل لامرىء من اخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ..) (١) ويعرض الرسول (ص) هذا التوجيه النبوي الكريم المستمد من احكام القرآن في أخوة المؤمنين باسلوب آخر يمهد له بالحديث عن حب الله عز وجل وحاجة المرء إلى ذكره تعالى في كل وقت كي لاتزيغ به الأهواء ولا يبتعد عن المحجة البيضاء التي يستقيم بها خلقه ويصح بها عمله ويعظم أجره . ويقرر القاعدة العظيمة في مكانة المتحابين في الله وان حبهم يجب ان يكون من حب الله عز وجل وحب رسوله وشرعه .

(أحبوا ماأحبَّ الله من كل قلوبكم ولاتملوا كلام الله وذكره ولاتقس عنه قلوبكم فإنه من كل مايخلق الله يختار ويصطفي ، قد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث ومن كل ما أوتي الناس الحلال والحرام فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ماتقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام) (٢) .

وبهذا التعبير القوي المتين يربط الرسول العظيم بين عبادة الله وتقديسه وإخلاص القلب وبين حب المؤمنين فيما بينهم في الله وبروحه لكي لا تكون الأوامر الدنيوية والمادية هي التي تربط الأفراد اذ سرعان ماتزول وتتهاوى وتنقلب المحبة عداوة وبغضاء .

---

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص ١٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ج٣ ص ١٠٥ — ١٠٦ .

ويؤكد الرسول (ص) مبادىء الاخوة بين المؤمنين وضرورة التحاب فيما بينهم باسلوب آخر يقرب من القواعد العملية والأمور التطبيقية فينص أولا على وجوب محبة أصحابه المقربين الذين كانوا عماد الدين وجوهر الدعوة حين حملوها وضحوا من أجل اعلاء كلمتها ورفع لوائها بكل ما كانوا يملكونه من مال وجهد وسمعة وحسب وجاه وتعرضوا للموت بل عرضوا فداء الرسول والدعوة الاسلامية بأنفسهم ودمائهم والجود بالنفس اقصى غاية الجود ، انهم خلفاؤه الذين جاء كل منهم في وقته المقرر وأجله المحدد فكان بلسماً شافيا ودواء ناجعا لما كان المجتمع قد تعرض له من المشكلات والمصاعب إنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين والأحاديث النبوية الشريفة زاخرة بمعاني التقدير والتوقير لهؤلاء الصحب الميامين إلى جانب الآيات الكريمة التي اشارت اليهم في مناسبات عدة واشارات كثيرة .

وقد عقد الأمام مسلم بن الحجاج القشيري أربعة أبواب أفرد كل باب منها لذكر فضائل هؤلاء الخلفاء الأربعة المشهورين ابي بكر وعمر وعثمان وعلي (١) وقال في جزء من حديث في باب : من فضائل أبي بكر الصديق (وقال رسول صلى الله عليه وسلم إن أمن الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوة الأسلام . لاتبقين في المسجد خوخة الا خوخة ابي بكر ..) (٢) هكذا يعرض لنا الرسول صلى الله عليه وسلم صفات أصحابه ومكانتهم وفضلهم في السبق إلى الأسلام والبذل والتضحية حتى رفع الله لواءه واعز دينه ونصر عباده .

إنه صاحب الخلق العظيم الذي يربي أمته على المحبة والاخوة والصفاء ويعلمهم الأعتراف بالفضل لأهله والمبادرة إلى وضع الناس في منازلهم التي يستحقونها بحسب جهادهم وتفانيهم لنشر دين الله غير مبالين بما يكلفهم ذلك من جهد ومال وتعب ونصب .

وفضلا عن هذا فان فعل الرسول الكريم هذا ينطوي على الحكمة النبوية العظيمة وحسن التصرف وبعد النظر في رص الصفوف وجمع الكلمة ودفع عوائل الفرقة والضعف والتفكك عن المجتمع الأسلامي والمجتمعات الأخرى ، ذلك ان هؤلاء الخلفاء الأربعة لاتتمثل مكانتهم

---

(١) ينظر صحيح مسلم المجلد الرابع ص ١٨٥٤ – ١٨٧٤ ويلي الأبواب أبواب أخرى في ذكر فضائل الصحابة الآخرين وزوجات الرسول وآل بيته .

(٢) صحيح مسلم المجلد الرابع ص ١٨٥٤ – ١٨٥٥ .

بما بذلوه من جهود فحسب وإنما تبدو في صلتهم الوثيقة برسول الله (ص) واثر هذه الصلة في نقل الجزء الأكبر من سنة الرسول في القول والعمل والتقرير وكانوا اعلاماً ومنائر للهدى ورفع لواء الحق بعده ، وهذا كله من سمات المجتمع المتحضر القائم على المحبة والصفاء والمودة والمحبة والوفاء .

على ان الرسول الأكرم لايقف عند حد هذه الدائرة الهامة الأولى من دوائر المجتمع وقواعده بل يمضي في تثبيت هذه القاعدة من خلال الدائرة الأخرى التي تليها وهي دائرة المهاجرين والأنصار بصورة عامة فيوصي باحترامهم وتقديرهم والأعتراف بفضل صحبتهم مستعينا بما ورد في القرآن الكريم في فضلهم ومكانتهم فيقول في إحدى خطبه : (ألا أني لاحق بربي وإنكم لاحقون بي فاوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فان الله تعالى يقول : « والعصر ان الأنسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وإن الأمور تجري بإذن الله وولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عزوجل لايعجل بعجلة أحد ومن غالب الله غلبه .

وأوصيكم بالأنصار خيراً فانهم الذين تبوأوا الدرار والأيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم في الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم في الديار ، ألم يؤثروا على أنفسهم وبهم خصاصة ، الا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستاثروا عليهم (١) والي جانب هذا كله فان الرسول (ص) لم يقف عند حد التشريع وإصدار الأوامر والنظم في الأخوة وإنما بادر فعلا في ميدان التطبيق إلى سن ذلك التشريع العملي العظيم في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فور وصوله إلى المدينة المنورة وبذلك أصبح المجتمع الأسلامي مجتمعاً فريداً في هذه الظاهرة التي دلت على عظم تلك النفوس المؤمنة التي بذلت كل ماتملك وعرضت مشاطرة الأموال والأملاك مع المهاجرين الفارين بدينهم وقد تركوا كل مايملكون بل تركوا أهليهم وذويهم في مكة .

وعلى هذا (لم يكن ماأقامه الرسول (ص) بين أصحابه في مبدأ التآخي مجرد شعار في كلمة أجراها على ألسنتهم وإنما كان حقيقة علمية تتصل بواقع الحياة وفي جميع أوجه العلاقات

(١) تاريخ الاسلام السياسي/ حسن ابراهيم حسن حـ١ ص ١٤٩
وينظر ابن هشام/السيرة النبوية حـ٤ ص ٢١٩ وأحاديث كثيرة في كتب الحديث بهذه المعاني.

القائمة بين الأنصار والمهاجرين ولذلك جعل النبي (ص) من هذه الأخوه مسؤولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الأخرة وكانت هذه المسؤولية تؤدي فيما بينهم على خير وجه (١) إنها التشريعات الأسلاميةالنبوية الكريمة ذلك أن اي مجتمع متحضر يتطلع إلى العزة والسؤدد ويهدف إلى تحقيق السعادة والرفاه باتحاد أفراده وتكافلهم وتضامنهم وتعاونهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ويدهي أن الاسلام قد سبق إلى تحقيق هذه المعجزة في صفوف أفراده في صورة لايمكن أن يحققها أي نظام في الدنيا وبخاصة حين تفتقد النظم الوضعية عنصر العقيدة والأجتماع على كلمة الله والحب فيه ذلك أن التآخي (لابد أن يكون مسبوقاً بعقيدة يتم اللقاء عليها والأيمان بها ، فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم ،خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين في الحياة العملية) (٢).

المساواة بين الناس :

وينتقل الرسول (ص) الى إقرار المساواة بين الناس بعد إقرارها بين أفراد المجتمع الأسلامي وتحقيق الأخوة الصادقة في صفوفهم .

ويعتمد الرسول (ص) في إقرار الأواصر الأنسانية بين بني البشر وإلغاء الأختلاف والتباين في المعاملة فيما بينهم على قاعدة الأصل الواحد التي هي أساس المساواة من وجهة نظر الأسلام ولكن ليس الأصل الواحد هو الأساس الأول والأخير وإنما هناك أساس آخر أهم منه وهو وحدة الألوهية فالناس جميعا يعبدون إلهاً واحداً وينحدرون من أب واحد ولهذا لايمكن التفريق بينهم على أساس من أختلاف في الجنس أو الدم او الحسب أو النسب أو المكانة لأن هذه كلها أمور فرعية وروابط ظاهرية جانبية لاتثبت مع الزمن ولاتستطيع أن توحد الناس بل إنها تفرقهم وتضعف صفوفهم ...

(أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ..) (٣) .

---

(١) فقه السيرة – محمد سعيد رمضان البوطي ص ١١٢ ومابعدها .

(٢) فقه السيرة/ د. محمدسعيد رمضان البوطي ص ٢٠٩

(٣) الترغيب والترهيب / الحافظ المنذري حـ٤ ص ٣٩٢

وينظر كذلك حياة الصحابة / محمد يوسف الكاندهلوي حـ٣ ص ٤٤٦

إن في هذا المبدأ إلتفاته عظيمة وقاعدة كبرى في تعريف الناس بأقدارهم فهم من التراب لايختلف أصل عن أصل ولايمتاز أحد من أحد إلابمقدار ما يباشره في سلوكه من الصلاح والهدى والنفع لامتهم ومجتمعهم وللأنسانية جمعاء .

(وحقيقة الأمر أن الأسلام عندما أعلن المساواة وطبقها فعلا باعتبارها عنصراً من عناصر الأخوة الأنسانية التي ينبغي مراعاتها، كانت في الواقع مبدأ غير معروف في العالم الروماني المسيحي الذي غزاه العرب. ولاعجب فقد حاول محمد دائما باعتباره نبياً وباعتباره عربياً أن يظهر الانسان في أكمل صورة معززاً مكرماً خليقاً بالأحترام ، ومما يدلك أبلغ دلالة على روح المساواة ماروى عن ابن عمر أن النبي عليه السلام قال : «إن دخلت عليكم وأنتم جلوس فلا يقومن أحد منكم في وجهي ، وأن قمت فكما أنتم ، وإن جلست فكما أنتم، فإن ذلك خلق من أخلاق المشركين ..) (١).

ويعرض الرسول (ص) هذا المبدأ العظيم من خلال توجيهات في كلمات قليلة يتناول فيها الأمر باصول وقواعد أن هي الا أسس التعامل واسباب الترابط الوثيق بين الناس بصورة عامة والمسلمين بخاصة .

(أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ...) (٢)

فهذه التحية الأسلامية هي شعار السلام والوئام بين أفراد المجتمع الواحد فهي كما تنبثق من قلب مطمئن مسرور صافي السريرة تلقى على قلب يتقبلها بمزيد من الأطمئنان والسرور وصفاءالسريرة وخلوص النية. ومثل ذلك نستطيع القول في الحث على إطعام الطعام بهذه الصورة العامة المطلقة دون تخصيص أناس معينين وكذا صلة الأرحام لأبقاء العلاقات الأسرية في أبهى صورة من الأرتباط والتعاون والتكامل وهذه أمور لايخفى أثرها في المجتمع ولاتنكر نتائجها في تقدمه وازدهاره وتحقيق أرفع أسباب الحضارة والتمدن الصحيح.

ولم يكن غريباً بعد هذا أن يلتف الناس حول الرسول ويقبلوا على تعاليمه ونظمه على توالي القرون والأعوام يشعرون بحاجتهم الماسة إلى هذه التعاليم لتحل لهم المشكلات التي صارت أمراضاً فتاكة في أجساد المجتمعات .

---

(١) اثر العرب في الحضارة الأوربية / جلال مظهر ص ١٣٣

(٢) محمد بن سعد كاتب الواقدي جـ١ ص ١٥٩

(إن العالم الأنجليزي الأستاذ بورك يسجل حقيقة واقعة في هذا المجال حين يقول : «إن القانون المحمدي – يقصد الاسلامي – ملزم للجميع من صاحب التاج الي أحط فرد في الرعية ، إنه قانون يقوم على أساس من أحكم شريعة وجدت في العالم..) (١).

في الاسرة والحياة الزوجية:

وتأتي السمة الأخرى الهامة من سمات الحضارة الأسلامية في خطب الرسول (ص) في نطاق الوحدة الأجتماعية الاساسية وهي الاسرة فقد أولاها الأسلام العناية الكبرى ونظم العلاقة بين الزوجين تنظيماً لم يسبق اليه ولم تستطع شريعة أخرى بعده ان تحقق ما حققه وأن تضع من الاسس والقواعد والنظم مايكفل حقوق كل منها ويؤدى بالتالي إلى أن يكون المجتمع سعيداً مرفها متآزراً متعاوناً انتجته الاسرة القائمة على امور الشرع من الذرية الصالحة التي تبنى بها المجتمعات وتقام الحضارات .

وكان من ابرز القواعد التي وضعها القرآن الكريم لتكون نظام الأسرة وأساس التعامل بين طرفيها قوله تعالى : (من آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ..) (٢) .

فقد جعل الحياة الزوجية الأيجابية الناجحة قائمة على هذه الأسس وهي السكن والمودة والرحمة . بعد ان جعل الزوجة من الزوج أى أنها جزء مكمل ومتمم له من هنا نجد أن الرسول (ص) يعلن في خطبته الأخيرة في حجة الوداع إنجازا لمبادىء الأسرة ليذكر الناس بمفتاح سعادتهم في حياتهم الاسرية ويضع أمامهم الطريق الصحيح والنهج الواضح المستقيم لأقامة هذه العلاقة التي تعد اللبنة في بناء المجتمع الحر السليم المتعاون .

إنه يوضح الحقوق المشروعة للمرأة على الرجل والحقوق المشروعة للرجل على المرأة ويجعل العلاقة كما أشار القرآن الكريم – قائمة على المودة والأحترام والثقة اذ لاتقوم حياة زوجية سعيدة بدونها :

(أما بعد ايها الناس فان لكم على نسائكم حقاً ولكم عليهن حقاً لكم عليهن أن لايوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن أن لايأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فان الله قد اذن لكم

(١) معالم الحضارة الاسلامية مصطفى الشكعة ص ٣١
(٢) القرآن الكريم سورة الروم أية ٢١

أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً ....) (١) .

بهذا الميزان الاسلامي القويم في قواعد الأسرة قام المجتمع ، المتكامل المتعاون وتأسس بنيانه على أصول متينة من التفاهم وحل المشكلات التي تعترض مسيرة الحياة الزوجية في خطوات متئدة تعتمد الأتزان والتعقل وتأخذ بالخطوات المرسومة حسب أهميتها وتدرجها ولم تجز للرجل ان يستعجل في حكمه او يقدم في علاجه خطوة على اخرى تجنباً للاضرار بمصلحة الزوج أو الزوجة وكذلك دفعاً للتأثر بالأهواء الشخصية او الاخذ بالظن قبل التأكد من وقوع الخطأ الصادر أو الذنب المرتكب ومرة أخرى نشير إلى أن الرسول (ص) لم يقف عند حد التشريع وإصدار القوانين والأنظمة وإنما يوجه تلك التشريعات ويدعمها بالتطبيق العملي في حياته وخير دليل على ذلك حياته الزوجية ومعاملته لأزواجه (ص) وحله للمشكلات التي كانت تعترض حياته الزوجية وذلك على الرغم من تعدد زوجاته وكثرة مشاغله في الدعوة والتبليغ ، وما تزال حياة الرسول الكريمة في بيته ومع زوجاته غرة في جبين الحياة الأسرية على امتداد الأعوام وتطاول القرون ، مثلا أعلى وقدوة سامية رفيعة في الانسجام والتفاهم والتعاون في السراء والضراء .

وحديث ذلك يطول وله مواطنه في عشرات الكتب والمؤلفات التي كتبت في تصوير حياة الرسول والكشف عن سماتها وخصائصها ليقتدى الناس بها ويحققوا ماتصبوا إليه نفوسهم في حياة زوجية مستقرة ويكون الأسلام في شخص الرسول ومن خلال أقواله في خطبه وسيرته مع أوزاجه قد جنب الانسانية — في حال التزامها بنهجه — جميع الويلات ومظاهر الدمار والتفكك الذي يلاحظ في المجتمعات المعاصرة في الشرق والغرب بسبب ضعف العلاقات الأسرية لدرجة تكاد تختفي معها أبسط سمات وملامح الأسرة ، كما هو الحال في المجتمع الغربي الذى يعاني من انفصام أسرى اخلاقي وامتهان للعرى الزوجية والكرامة الأنسانية وذلك على الرغم من ان هذا المجتمع يعيش في ظل الحضارة التي وفرت له كثيرا من أسباب العيش المادي وذللت العديد من الصعاب في الحياة ، ولكنها لم تستطع أن تهيء شيئاً واحدا هاماً هو عماد الحياة وأساس الأستقرار الفرديوالأجتماعي ألا وهو

---

(١) سيرة ابن هشام حـ٢ ص ١٨٥– ١٨٦ وينظر الجاحظ / البيان والتبيين حـ٢ ص ٣٢ .

الأستقرار الروحي الذى به يتم توازن الشخصية الانسانية ويتحقق تنظيم غرائز الأنسان وشهواته ويوجهها فيما يعود بالنفع والخير والوئام على المجتمع والأنسانية بأسرها .

على أن كل هذه الاعراض التي تبدو في مجتمعات الشرق والغرب ليست إلا ثمرة هذه الحضارة المادية التي اعتمدت الجانب المادي وبالغت فيه وعنيت به العناية الكبرى مهملة الجانب الروحي الذي لاتستقيم الحياة بدونه .

من هنا كانت الأمة الاسلامية في حالة تمثلها بشرع الله ورسوله والتزامها بالاحكام والقواعد الاسلامية الصحيحة قائدة الأمم ، شاهدة عليها :(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ...) (١).

وهذا كما لايخفى أسمى ما تتطلع اليه الانسانية في مسيرتها الحضارية حيث يجعل الاسلام أتباعه قادة للناس وأئمة وشهداء بعد أن يكونوا قد حققوا في أنفسهم معاني الأسلام وقواعده الأصيلة وعندها تستكمل الحضارة الحقة عناصرها وتحتل مكانتها في تحقيق السعادة والرفاه والأمن والتعاون والصفاء للناس على وجه البسيطة ، بالقيادة الحكيمة الرحيمة التي تبني وتعمّر القلوب والأرواح قبل المظاهر والاشكال وتقيم العلاقات على اساس من المحبة الصادقة والوفاء الخالص والنصيحة والأيثار في سبيل عزة الأمة وكرامتها وجعلها غرة في جبين الأمم وقائدة رائدة للأنسانية ومهما ادلهمت الخطوب وكثرت المصاعب وتوالت المشكلات ، ففي الأسلام حلها وفي القرآن الكريم وسنة الرسول الأمين (ص) وسيرة سلفه الابرار الجواب الشافي والبلسم الناجع الذي لايغني غيره عنه مهما بدا في صور عديدة في البهرج الكاذب والزخرف الخادع .

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) (٢) .

في المال والاقتصاد :

ولابد من وقفة عند السمة الأخرى من سمات الحضارة الأسلامية في خطب الرسول (ص) وهي سمة العناية بعصب الحياة وقوام التعامل بين الأفراد والجماعات ووسيلة الأعداد والقوة ليكون المجتمع دائماً في قوة وعزة ومنعة ، إنه المال الذي فطر الأنسان على

(١) القرآن الكريم سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢) القرآن الكريم سورة الرعد آية ١٧ وأولها (أنزل من السماء ماء...).

حبه وشغف بجمعه وكانت له من وراء حبه له وشغفه به متاعب ومصاعب وفتن وأهوال مقابل الوان من مظاهر السعادة والراحة ورفاه العيش .

لهذا فقد عنى الأسلام بتنظيم أوجه كسب المال وطرق استغلاله وانفاقه في آيات كثيرة من القرآن الكريم وفي جميع الأمور التي تتعلق بحياة الأنسان وتمهد له سبل الاستقرار والتمكين في الأرض.

حدد طرق الكسب والأنفاق وقيدها بالحلال واباح التملك وشرع الزكاة والأنفاق والتصدق وحرم الربا والأحتكار والغصب والسرقة والرشوة وأكل اموال الناس بالباطل والأثم إلى غير ذلك من التشريعات الربانية والتوجيهات النبوية السامية التي جاءت عامة مطلقة أو مفصلة مقيدة استوعبتها كتب ومؤلفات عديدة تفوق الحصر ولم تقف عند زمن معين او مكان خاص مازالت تظهر في كل يوم مؤلفات عديدة في هذا المجال هنا وهناك في ارجاء المعمورة تشيد بدور الأسلام في تنظيم الاقتصاد والمال (١).

ومن أبرز ماعنيت به خطب الرسول (ص) من هذه التشريعات والتنظيمات الاقتصادية تحريم الربا وهو امر نص عليه القرآن الكريم في اكثر من آية منها قوله تعالى :

(ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ..) (٢) وقوله تعالى :

(الذين يأكلون الربا لايقوم .. الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا) (٣) وصورة الربا (أن يطلب من له حاجة ملحة إلى مال نقد و إلى مال ممثل في مكيل او موزون من صاحب المال قرضا لأجل معين مع اضافة زيادة في غير مقابل مع نفسه . وقد عرفه الفقهاء بأنه : فضل مال بلا عوض في معاوضة مال بمال ..) (٤) وذلك أخذا من الحديث الشريف في قوله (ص) (كل قرض جر منفعة فهو ربا) (٥) ونص الرسول (ص) على هذا التحريم في بعض خطبه بالأضافة إلى عشرات الاحاديث النبوية في الترهيب من شروره ونتائجه الفتاكة في جسم المجتمع .

---

(١) ينظر الفصل المطول الذي كتبه الدكتور محمد البهي تحت (عنوان اتجاه الاسلام) في كتابه : الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر ، الفصل الأول ص ٣ – ١١٧.

(٢) سورة البقرة ٢٧٨ .

(٣) البقرة ٢٧٥.

(٤) الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر – محمد البهي ص ٣٨ .

(٥) العسقلاني / الحافظ ابو الفضل بن حجر / بلوغ المرام من أدلة الاحكام ص ١٤٨ .

ويستهل الرسول(ص)نداءه إلى الناس عامة والمسلمين خاصة بالحديث عن الأمانة وأهميتها ووجوب ادائها إلى اهلها منطلقاً من قوله الله عز وجل (ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات إلى اهلها) (النساء آية ٥٨) ليلفت النظر إلى اهمية هذا الركن في حياة المسلم اذ لاحياة لمجتمع تفقد الثقة وتضيع الأمانة بين أفراده (انكم ستلقون ربكم فيسألكم عن اعمالكم وقد بلغت فمن كانت عنده امانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها..)(١)

ثم يعقب بعد هذا التمهيد مباشرة بالكلام عن الربا وحرمته ليوضح الصلة القوية بين الموضوعين بعد ربطهما بالعقيدة الأسلامية عن طريق التذكير بلقاء الله عز وجل ومحاسبته عباده عن أعمالهم وانه مبلغ قد ادى واجبه ورفع الأمانة عن عنقه ووضعها في اعناق المسلمين عبر أجيالهم المتعاقبة وعصورهم المتوالية فيقول: (وان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون ، قضى الله أنه لاربا ..) (٢) .

وبعد هذا التقرير الواضح والأمر الجازم المستمد من احكام القرآن الكريم والذي ينص على التحريم وكيفية التصرف في الحالات السابقة من الربا قبل نزول أمر التحريم اذ كان شائعاً في العرب وكان يعد من دعائم الاقتصاد في المجتمع الجاهلي نجد ان الرسول صلى الله عليه وسلم لايقف عند التشريع وإصدار النظم وإنما يتبع ذلك بالتوجيه والتطبيق مبتدئا بمن يليه من ذوى قرباه ممن كانوا يتعاطون الربا في الجاهلية فيقول : (وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ..) (٣) .

وهكذا يضرب الرسول الاعظم المثل الأعلى في التشريع والتطبيق وجعل التشريعات ايجابية ذات اثر فعال بتطبيقها على الجميع دون استثناء .

وهذه سمة حضارية عظيمة تفتقر الأنسانية إلى التمثل بها في جميع الأحوال والظروف والاماكن.

ويكون الأسلام قد سبق إلى انقاذ البشرية من آفة الربا لأنه يجانب استغلال ضعف ذي الحاجة يحيل الأنسان إلى مستهلك فحسب بدلا من ان يكون منتجا أصلا ومستهلكاً في الوقت ذاته ، وتبعا لذلك يشيع التبطل والتعطل ويقل الأنتاج البشري .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٤ ص ١٨٥ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ٤ ص ١٨٥ .

ولو استشرى امره إلى الغاء الأنتاج البشرى كله ، ويؤمئذ لايعيش مجتمع الربااليوم ليفني غداً وهو اذا عاش اليوم عاش في جزع وا ضطراب هلعاً من مستقبله غداً ...) (١). ولاتخفى الحال التي يكون عليها المجتمع القائم في تعامله على الربا الحال المزرية الزاخرة بمظاهر الاستغلال والاعتداء والظلم في ظل نظام اقتصادى يشجع العبودية وينشر الذل بين أفراد المجتمع ويخضع الأكثرية من الناس لأقلية مستغلة لاتعرف غير منطق المال وجمعه مهما كانت الوسيلة مضرة بالمجتمع داعية إلى فصم العرى بين أفراده مؤدية إلى نشر العداء والبغض والتفكك (والواقع أن النظام الأقتصادى القائم على الربا لايقوم على اساس متين ولكن مظهره الضخم الذي يعجز الناس أمامه يخفي حقائق بشعة أهمها زيادة تركز المال في ايدى طائفة قليلة تتحكم في النشاط الاقتصادى وتوجه من بعده كل نشاط آخر قد يكون سياسيا أو اجتماعياً . فتحريم الربا في القرآن الكريم والسنة النبوية من الآيات الباهرة في الأسلام) (٢) .

في العادات والمعاملات :

ومن سمات الحضارة الاسلامية ومعالمها الواضحة البارزة كما اشارت اليها خطب الرسول (ص) الموقف من واقع المجتمع الجاهلي والنظر إلى عاداته وأخلاقه وتقويم المثل والموازين التي تحكمه ، ذلك الموقف الذي يعتمد سمة حضارية رفيعة حين يكون ايجابياً متوازنا يقر الحق النافع من عادات المجتمع وموازينه واعرافه كما يهدم الباطل الضار منها :

أسقط الرسول (ص) ثارات الجاهلية وأبطل عادة الغزو والحرب لأتفه الاسباب ، وأسقط النزعة العنصرية الجاهلية التي تجعل حرمة النسب والدم فوق كل الحقوق والموازين وتنكر على جميع الأجناس والألوان اى قدر من المكانة والأحترام ولكنه يعلن مقابل ذلك او بعده مباشرة مبدأ المساواة بين بني البشر في اول فرصة أتيحت له بعد فتح مكة مواجها اعتى العتاة الذين قاوموه وأنكروا عليه دعوته .

(يامعشر قريش) إن الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء الناس لآدم وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الاية « ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم

(١) الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر / محمد البهي ص ٣٩

(٢) قضية العودة إلى الاسلام في الدولة والمجتمع /جمال الدين محمد محمود ص ١٥٨ وما بعدها.

شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ثم قال : يامعشر قريش ماترون اني فاعل فيكم ؟ قالوا خيرا : اخ كريم وابن اخ كريم قال : اذهبوافأنتم الطلقاء ..) (١) وهكذا يبلغ الرسول (ص) كعادته وسيرته أعلى درجات الرفعة والسمو في الجمع بين التشريع والتوجيه والتطبيق العملي ليكون قدوة واماماً ويرسم للأنسانية في شتى عصورها ودهورها وا ماكنها ودولها اعظم سمات الحضارة والتقدم والنضج في تطبيق الأحكام.

ويحطم الرسول (ص) عادة التلاعب بالأشهر الحرم تقديماً او تأخيراً جريا على اهواء العرب ورغباتهم وما تقتضيه مصالحهم الشخصية حين تكون هناك منفعة في جر مغنم او تجارة او استقضاء دين او اخذ بثأر وقد عبر القرآن الكريم عن ممارسة العرب لهذا في الأشهر بقوله تعالى :

(انما النسء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله ...) (٢)

ثم يأتي تأكيد الرسول لهذا الأمر الرباني مع تفصيل بالتسمية للأشهر الحرم حتى يقطع الطريق على المتلاعبين بتلك الأشهر ويوقفهم عند حدود الشرع في النظر إلى الوقت وتقديره حق قدره .

(أيها الناس إن النسء زيادة في الكفر يضل به الذي كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله ويحرموا ماأحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان ..) (٣) .

وهذا التوجيه النبوي الكريم المنطلق من توجيه الله وامره ينطوي على سمة حضارية تؤكد استقلال الأمة الاسلامية وا متيازها عن غيرها من الأمم بان يكون لها تاريخ مستقل ورأي أصيل واضح في تسمية الشهور وتوزيع أيامها على مدار السنة الواحدة بخاصة وقد كانت للأمم وقت ظهور الاسلام وبعده نظم مختلفة في اشهر السنة وأيامها تعتمد احداثا بارزة في حياة تلك الأمم وسير رجالها .

---

(١) سيرة ابن هشام . جـ٤ ص ٤١

(٢) سورة التوبة آية ٣٧

(٣) كتاب الطبقات الكبير / الواقدي م ٢ جـ١ ص ١٣٢

وبذلك يؤكد الأسلام مرة أخرى في هذه التوجيهات على ان يكون المسلمون مستقلين في آرائهم متبوعين لا تابعين في تصرفاتهم ومواقفهم.

على ان الرسول (ص) في الجانب المقابل لهذا يقر بعض مآثر العرب وبخاصة السقاية والسدانة لما فيهما من تعظيم البيت الحرام وتقديسه تنفيذا لأمر الله عز وجل واقراراً لمبدأ الأشراف على هذا البيت العتيق من قبل اشرف العرب اصلا ومحتداً يخدمونه ويتولون شؤون رعايته والمحافظة على حرمته دون ان يجدوا في ذلك غضاضة أو حرجا .

(قال ابن اسحق : فحدثني بعض اهل العلم : ان رسول الله (ص) قام على باب الكعبة فقال لاإله الا الله وحده لاشريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثره أو دم او مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين الاسدانة البيت وسقاية الحاج ..)(١) ثم عقب الرسول العظيم على إقرار هذين الأمرين من أمور المجتمع بالتعرض لأمر هام طالما كان الناس فيه مذاهب مختلفة تعتمد القوة والتسلط في أمر القصاص فيقر بعض العقوبات التي تترتب على الذين لايلتزمون بشرع الله لمرض في نفوسهم وزيغ أو انحراف في عقولهم ومن ذلك عقوبة قتل النفس وقد كان القرآن الكريم مستوعباً لهذه العقوبة على العموم والأطلاق في قول الله عز وجل :(النفس بالنفس والعين بالعين ...) (٢) .

وكان نص الرسول في خطبته مفرقاً بين نوعين من القتل : القتل العمد او مايسميه القانون الوضعي القتل مع سبق الأصرار وبين القتل الخطأ الذي لايكون عنصر التصميم والعزم متوفراً فيه .

(ألا وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا فيهما الدية المغلظة فيها أربعون خلفه في بطونها أولادها) (٣) .

وبعد: فهذه لمحات سريعة موجزة في أبرز معالم الحضارة الأسلامية في خطب الرسول وهي لاتشكل سوى جزء يسير مما احتوته هذه الخطب من المعالم الحضارية التي ماتزال

---

(١) سيرة ابن هشام حـ٤ ص ٤٠ – ٤١

(٢) القرآن الكريم سورة المائدة آية ٤٤ وتبدأ بقوله تعالى (وكتبنا عليهم فيها ...) .

(٣) تاريخ الأمم والملوك / الطبري حـ٣ ص ٦٤٢

البشرية بحاجة إلى بذل أقصى الجهود لتحقيقها والوصول اليها لاسعاد الناس وتخليصهم من آفات الجهل والمرض والفرقة والضعف والتحلل والأنهيار الخلقي والأجتماعي .

ولعل من ناقلة القول أن نشير إلى أن هذه الخطب تحتاج إلى دراسة مستفيضة من وجوه ونواحي متعددة وليس على صعيد المضمون فحسب .

إن ذكرى مرور أربعة عشر قرنا على هجرة الرسول (ص) واقامته أول حكومة إسلامية جديرة أن تشد جميع المعنيين بالأمانة العلمية والبحث العلمي الصحيح ومعهم جميع الذين يحرصون على أن تسود العدالة وينتشر الأمن والسلام ويتحقق التعاون والوئام في أرجاء المعمورة أن يخلصوا النية ويشدوا العزائم للكشف عن مزايا وسمات الرسالة التي حملها صاحب هذه الذكرى متجرداً لله في أقص درجات الجهاد والتضحية لنشر أكمل النظم وأعظمها إيجابية في حياة الأنسان في كل زمان ومكان .

مصادر البحث ومراجعه

ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون .
دار إحياء التراث العربي / بيروت – لبنان .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري .
السيرة النبوية / طبعة جديدة مضبوطة منقحة. شركة الطباعة المتحدة ١٥ شارع العباسية ١٩٧٤ .

ألبرت شفيتشر : فلسفة الحضارة .
ترجمة: عبد الرحمن بدوي / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر / مطبعة مصر ١٩٦٣ .

أنور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه .
دار الفكر / دمشق ١٩٧٣ / ١٣٩٣.

إيليا حاوي : فن الخطابة عند العرب .
دار الثقافة / بيروت .

جلال مظهر : أثر العرب في الحضارة الأوربية .
دار الرائد – بيروت – الطبعة الاولى ١٩٦٧ .

زكريا هاشم : فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم
دار نهضة مصر – القاهرة – مطبعة نهضة مصر ١٩٧٠.

عبد اللطيف حمزة : الأعلام في صدر الأسلام .
دار الفكر العربي – القاهرة / الطبعة الأولى ١٩٧١.

عبد اللطيف الطيباوي : محاضرات في تاريخ العرب والاسلام .
دار الاندلس للطباعة والنشر / الطبعة الثانية ١٩٧٩.

محمد البهي : الفكر الأسلامي والمجتمع المعاصر .
الدار القومية للطباعة والنشر / مطبعة الأستقلال الكبرى – القاهرة – ١٣٨٥ / ١٩٦٥ ؛

محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك .
طبعة دار المعارف – القاهرة – مصر .

محمد بن سعد : كاتب الواقدي الطبقات الكبرى .
طبع مدنية ليدن المحروسة بمطبعة بريل سنة ١٣٢٢هـ .
منشورات مؤسسة النصر / طهران .

محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة .
دار الفكر – دمشق – الطبعة الرابعة ١٩٧٢ – ١٣٩٢.

مصطفى الشكعة : معالم الحضارة الأسلامية
بيروت دار العلم للملايين / الطبعة الأولى. ١٩٧٣ .